الخطاب الديني في مواجهة الأزمات المعاصرة
سلبيات المنقول وسمات المأمول

دكتور

طارق محمد تيسير ناجي

ماجستير في الإعلام الإسلامي

آذار/ ٢٠١٧

مؤتمر
كلية
الدراسات
الإسلامية

مؤتمر
كلية
الدراسات
الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تمهيد:

الحمد لله القائل في كتابه : (وقل رب زدني علما)، والصلاة والسلام على سيد الخلق والبشر، من جاء معلماً ومبشراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

بادئ ذي بدء فإنني أتوجه بالشكر لله تعالى أولاً، أن أفاض عليّ من معين جوده وكرمه، فألهمني كتابة هذه الورقة البحثية التي أسأل الله تعالى فيها التوفيق والقبول، ثم الشكر موصول إلى الأساتذة القائمين في كلية الدراسات الإسلامية والعربية في جامعة الأزهر، وإلى السادة منظمي هذا المؤتمر الذي يأتي في زمن حساس ودقيق، تمر به الأمة العربية والإسلامية، وهي تنزف من جراحها، وتعتصر من آلامها، وتواجه موجة استعمارية فكرية ثقافية، تستهدف النيل من أصالتها وعراقتها ورسالتها السماوية، من خلال خلط المفاهيم، وتشويه الحقائق، وتزوير الأحكام، وتضييق النصوص، وتسطيح العقول، وتنفير القلوب، وما إلى ذلك من أدوات خبيثة تلبس رداء الحضارة المزيف، الذي ظاهره الرحمة، وباطنه فيه العذاب.

لذلك نحمد الله تعالى أن وفق السادة الفضلاء في إقامة هذا المؤتمر الذي يتناول الخطاب الديني، ليوضح المعالم ويصحح المفاهيم.

ومن هنا أقدم هذا البحث المتواضع، الذي يندرج تحت المحور الثالث من محاور المؤتمر، وذلك كمحاولة في تشخيص الواقع الذي مر به الخطاب الديني خلال حوادث الربيع العربي، وما كان لهذا الخطاب من أثر ودور في تشكيل الوعي الفكري والثقافي والسياسي للناس، وذلك من خلال

تسليط الضوء على السلبيات التي وقع بها الخطاب الديني المنقول، ليتم الاستفادة من الأخطاء وتفاديها مستقبلاً، ثم عرضٌ لسمات ومميزات الخطاب الديني المأمول في قادمات الأيام .

خطة البحث :

أولاً: المقدمة : وفيها أهمية البحث وأهدافه ومشكلة البحث .

ثانياً: العرض وفيه :

المبحث الأول : التعريف بمفهوم الخطاب الديني وخصائصه.

المبحث الثاني: أزمات الخطاب الديني المعاصر.

المبحث الثالث: سلبيات الخطاب الديني المنقول.

المبحث الرابع: سمات الخطاب الديني المأمول.

ثالثاً : الخاتمة وفيها: التوصيات والمقترحات.

أهمية البحث :

لما كان الخطاب الديني هو همزة الوصل، وهو الجسر الممتد بين المصلحين والدعاة وقادة الرأي من جهة، وبين الناس من جهة أخرى، جعل لهذا الخطاب أهمية كبيرة في التأثير في الآخرين وتوجيه سلوكهم، ومما زاد في الأهمية والمكانة اصطباغ هذا الخطاب بالصبغة الدينية المستمدة والمستوحاة من الشريعة الإسلامية، والتي تفرض سلطانها بسهولة على الناس كونها مصدر إلهي. وهذا ما سهّل مهمة هذا الخطاب وسرعة وصوله إلى الناس.

وتأتي أهمية هذا البحث في كونه يسلط الضوء على أهم السلبيات والأخطاء والإشكالات التي وقع بها الخطاب الديني في الوقت المعاصر، وذلك منذ بدء الربيع العربي وحتى الآن، والهدف من هذا العرض، هو الاعتراف أولاً بتدهور الخطاب الديني في هذه المرحلة، وفشله في تحقيق

الكثير من أهدافه، بسبب تورطه الواضح في القضايا السياسية دون الإدراك التام للنتائج والمآلات والأخطار التي وقعت..

ثانياً يأتي هذا البحث كمحاولة متواضعة للنهوض بالخطاب الديني وتجديده، انطلاقاً من تشخيص الأخطاء ثم طرح البدائل والحلول والمقترحات لإصلاح هذا الخطاب، تحت ما يسمى سمات الخطاب الديني المأمول.

وكمنهج اعتمده في هذا البحث هو محاولة عدم تكرار السلبيات العامة التي وقع بها الخطاب الديني، وإنما التركيز على الواقع الذي مر به الخطاب الديني خلال فترة الأزمات السياسية التي مرت بها البلاد العربية، لما كان للخطاب الديني من دور بارز في تلك المرحلة، سواء دوراً إيجابياً أم دوراً سلبياً، هذا من ناحية، وللهوة وللفجوة الكبيرة التي تشكلت بين الناس وعلماء الإسلام من ناحية ثانية، لطريقة وكيفية تناول الخطاب الديني للأزمات.

مشكلة البحث :

تزايدت في الآونة الأخيرة وتزاحمت المنابر الإعلامية والسياسية والدينية المتنوعة، وفي جميع وسائل الإعلام المقروءة والمرئية والمسموعة، والتي جعلت من الخطاب الديني مطية للوصول إلى أهدافها ومصالحها، الأمر الذي صبغ الخطاب الديني بكثير من الشوائب والسلبيات التي ضعّفت من تأثيره، وقلّلت من أهميته، وأفقدته ثوب المهابة التي كان يتزين بها، وأفرز هذا الواقع مشكلة كبيرة تتلخص في رفض المجتمع لهذا الخطاب وإهماله له، وانقلابه عليه، بل ومحاربته لدعاته، الأمر الذي شكّل شرخاً كبيراً بين الدين والناس، مما استدعى معرفة أسباب ذلك أولاً، ثم التطلع إلى النهوض بهذا الخطاب ثانياً.

أهداف البحث:

يركز هذا البحث على أربعة أهداف رئيسية :

١- التعريف بمفهوم الخطاب الديني وخصائصه الأساسية.

٢- عرضٌ للأزمات التي يعاني منها الخطاب الديني.

٣- بيان السلبيات التي وقع بها الخطاب الديني المعاصر، المنقول إلى الناس عبر المنابر الإسلامية، والمنصات الإعلامية بجميع أشكالها.

٤- النهوض بالخطاب الديني من خلال تجاوز السلبيات أولاً، ثم امتلاك أدوات التميز والنجاح ثانياً، وذلك من خلال تحديد سمات الخطاب الديني المأمول.

المبحث الأول

التعريف بالخطاب الديني وخصائصه

مفهوم الخطاب الديني:

قبل التعريف بالخطاب الديني، لابد من توضيح معنى الخطاب في اللُّغة: الذي هو مصدر من الفعل الثُّلاثيّ خَطَبَ أي تكلّم وتحدّث للملأ أي لمجموعةٍ من النّاس عن أمرٍ ما. وخطب في الجمهور: أي ألقى كلاماً وحديثاً، أي خطبة[١].

وأمّا تعريف الخِطاب اصطلاحًا: فهو هو نصٌّ كلاميّ يحمل معلومات ورسائل يريد المتكلم (المرسِل) أن يوصِلها إلى المستمع (المتلقي)، بالعربيّة الفُصحى أو أيّ لغةٍ أخرى حسب مقتضى الحال لطرح موضوعٍ أو مشكلةٍ أو فكرةٍ؛ بهدف تغيير الرأي العام أو نشر أفكارٍ ومذاهب أو التَّحذير من قضيّةٍ ما أو شرح تعاليم ومبادئ الدِّين.

وقد ارتبط مفهوم الخطاب عند الغرب بالسلطة، كما نُسب هذا المفهوم إلى ميشيل فوكو (١٩٢٦- ١٩٤٨)، حيث يعتقد بأن الخطاب هو وسيلة من أجل الحصول على السلطة، وهو علاقة وثيقة بين اللغة وأشكال السيطرة والهيمنة الاجتماعية[٢] .

ولعله قصد بالسلطة هو ذلك التأثير الكبير الذي يُحدثه الخطاب في نفس المستمع أو المتلقي إذا أُحسن عرضه . فيدفعه إلى التغيير المباشر من خلال تحريك مشاعره أو تشكيل موقفه ، أو تغيير وجهة نظره. فهو بذلك امتلك سلطة أثرت في الجمهور المستمع.

---

(١) قاموس المعاني ، مادة : خَطَب.

(٢) موقع "موضوع" على الشبكة . http://www.mawdoo.com

تعريف الخطاب الديني:

و الخطاب الديني هو أحد أنواع الخطابات الكثيرة والمتنوعة، كالخطاب السياسي والخطاب الاجتماعي والخطاب الثقافي ، ووصف الخطاب (بالديني) نسبة إلى الدين. والمراد بالدين عن المسلمين الإسلام، وعند غير المسلمين عموم الأديان.

ولكن الخطاب الديني بهذا التركيب الإضافي هو مصطلح جديد، ذاع في العصر الحديث، وأول من أطلقه الغرب، ولم يُعرف هذا الاصطلاح من قبل في ثقافة المسلمين.(١)

والخطاب الديني يراد به: ما يصدر عن رجال الدين من أقوال أو نصائح أو مواقف سياسية من قضايا العصر، ويكون مستندهم فيها إلى الدين الذي يدينون به.

ويمكن أن نوسع مفهوم الخطاب الديني المعاصر في وسائل الإعلام بأنه : كل ما يقدم في الفضائيات من برامج الدينية والمسلسلات والمسابقات، وما يكتب في الصحف من مقالات وأخبار، ويتعرض للدين بطريقة أو بأخرى، فهناك بعض المسلسلات تعرض مقاطع لرجال دين يتصرفون بسلوكيات معينة أو يصدّرون أقوال معينة، فيمكن أن نعتبره خطاباً دينياً غير مباشر، لكنه يحمل رسالة مقصودة إلى الجمهور.

ويجب أن نفرق بين النص الديني والخطاب الديني..

فالنص الديني نص إلهي معصوم لا يمكن تغييره ولا تطويره..

---

(١) د.أشرف أبو عطايا ويحي عبد الهادي أبو زينة، الإسلام والتحديات المعاصرة، ورقة بحث لمؤتمر تطوير الخطاب الديني ، ٢٠٠٧م.

وأما الخطاب الديني: فهو الفهم البشري للنصوص الدينية، والاستدلال بها واستنباط الأحكام والقواعد الشرعية منها، وهو غير معصوم وقابل للتغيير والتطوير والتجديد.

خصائص الخطاب الديني:

عُني الخطاب الديني باهتمام كبير في شتى العصور، وزاد الاهتمام به في العصر الحديث، من قبل الباحثين والدارسين والمهتمين، بسبب تطور الخطاب وتوسع مجالاته وتعدد وسائله، حتى أصبح أحد أهم أدوات عملية التوعية الفكرية والثقافية للمجتمع، وله تأثير كبير وعميق في المسيرة الإنسانية والحضارية للشعوب، وامتاز الخطاب الديني عن غيره من الخطابات الأخرى بخصائص ومميزات كثيرة، اكتسب من خلالها هذه الأهمية والتأثير الكبير.

وسأعرض لبعض الخصائص الهامة والفريدة التي امتاز بها عن غيره:

١- قداسة المرجعية التي تعتبر أهم مصادر الخطاب الديني:

يرتكز الخطاب الديني في مضامينه وأفكاره وتوجيهاته إلى الدين، ولما كان الدين ذا مصدر إلهي، يستمد تعاليمه من القرآن الكريم، الذي هو كتاب الله عز وجل، وكذلك من سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة، في قوله تعالى : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون } فهذه الآية الكريمة تثبتُ حجية السنة النبوية في القرآن الكريم، وكما أشار المفسرون أن الذكر في هذه الآية المقصود به هو القرآن الكريم[١]. وإن هذين المصدرين القرآن والسنة، لهما قداسة كبيرة، وسور عظيم لا يمكن اختراقه أو تحريفه،

(١) ينظر تفسير القرطبي والطبري وابن كثير.

وبالتالي فإن التوجيهات الصادرة عن هذين المصدرين تكتسب ثقة كبيرة تستوجب الطاعة والانقياد، و هذه الميزة جعلت للخطاب الديني مكانة كبيرة في نفوس الناس المؤمنين، تحولت إلى أداة فعّالة ومؤثرة فيهم، من خلال تغير سلوكهم، وتوجيه حياتهم، وترسيخ القيم وتشكيل الاتجاهات لديهم، وهذا ما تفتقده الخطابات الأخرى.

٢- العالمية : إن هذه الخصيصة التي امتاز بها الخطاب الديني الإسلامي، تعتبر من المميزات الحصرية له، حيث أن الخطابات الدينية الأخرى، كانت توجه إلى جمهور محدد بالعقيدة أو الانتماء، أما الخطاب الديني الإسلامي فهو خطاب عام عالمي يوجه إلى جميع البشر، وهذا ما يُكسبه جمهوراً واسع الطيف وتأثيراً كبيراً، فهذا الخطاب الديني يستند إلى القرآن الكريم الذي يفتتح آياته بالعالمية فيقول: (الحمد لله رب العالمين) [سورة الفاتحة: ١] ويختتم آياته بكلمة (الناس) [سورة الناس:٧] دون تخصيص لأي فئة، وبين طياته العطرات نجد الخطاب يوجه بصيغ مختلفة منها قوله تعالى : (يا بني آدم) ومنها قوله (يا أيها الناس) . وما بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين قال تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[الأنبياء :١٠٧].

٣- الشمولية: الخطاب الديني هو خطاب شامل يشمل جميع مناحي الحياة، فهو يتوجه إلى تنظيم علاقات الإنسان الأساسية الثلاث : علاقه مع نفسه ، علاقه الإنسان مع ربه ، علاقة الإنسان مع غيره، ولو نظرنا إلى الفقه الإسلامي الذي يضبط حركة الإنسان وسلوكه لوجدناه شاملاً لجميع جوانب الحياة من حيث : الجانب الاجتماعي ، والجانب المالي ، والجانب العقائدي، والجانب السياسي، ففي الجانب الاجتماعي ينظم علاقة الإنسان مع غيره،

فهو يعالج مشاكل الأسرة والمجتمع مثلاً، كما جاء في قوله تعالى : (وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور:٣٣] ويضبط الجانب الاقتصادي فيقول تعالى : ﴿وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة:٢٧٥].

ويحدد الجانب العقائدي بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١].

فهذه الشمولية التي يتصف بها تعطيه إقبالاً من قبل الناس، لأنه يلامس حياتهم بكل صنوفها، ويضع لها منهجاً واضحاً نحو الخير والسعادة والبناء.

٤- أنه خطاب نهضوي متجدد، وهذه خصيصة مهمة جداً ، حيث يطلب من الإنسان السعي والعمل والحركة والبحث والاكتشاف والتطور وينبذ الكسل والضعف والوهن واليأس . وهذا ما يبدو جلياً واضحاً سواء في آيات القرآن الكريم، أو في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم.

فنجد مثلاً في قوله تعالى: (قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) دلالة واضحة في إرشاد الله تعالى عباده إلى التفكر والتأمل والبحث والتدقيق في هذا الملكوت الواسع واكتشاف المجهول، بما فيه من الآيات الباهرة الدالة على عظمة الخالق عز وجل.

ونجد في قوله صلى الله عليه وسلم (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يَغرِسَها، فليَغرِسْها)[1]، دعوة إلى العمل والجد وعدم اليأس حتى آخر لحظة من الدنيا.

(١) مسند الإمام أحمد، ١٨٣/٣، ومسند الطيالسي ٢٠٦٨.

هذه بعض الخصائص للخطاب الديني ويوجد خصائص أخرى له، ولكن هذه الخصائص تعطيه صفة التميز عن غيره، والتأثير الأكبر في الآخرين.

المبحث الثاني

أزمات الخطاب الديني

رغم الخصائص والمميزات التي امتاز بها الخطاب الديني عن غيره، وبملاحظة الواقع الحقيقي للخطاب الديني في الوقت المعاصر، يجد الفاحص والمدقق أن الناس في نظرتهم للخطاب الديني ينقسمون على فريقين: فريق يقبل هذا الخطاب ويعمل بمضمونه، ويدافع عنه، وينشر أفكاره، وفريق آخر يرفض هذا الخطاب ويعارضه إما رفضاً كلياً أو جزئياً، وتحت ذرائع شتى، وبدراسة عامة شملت عدة مقابلات مع فئات مختلفة من المجتمع وُجد أن الخطاب الديني يعاني من قصور وضعفاً في قبول الناس لرسالته ومضامينه ، ويمكن أن يُعزى هذا الضعف إلى عدة أسباب، يمكن أن نطلق عليها أزمات الخطاب الديني، وهي أزمات ذاتية لا علاقة لها بالمحيط أو الواقع الاجتماعي أو الظروف المعيشية أو القضايا الحياتية للناس. وهذا التوصيف يقودنا إلى تحديد من هو المسؤول عن فشل الخطاب الديني، وبالتالي معرفة طريقة العلاج والنهوض، فيتحمل القائمون على الخطاب الديني مسؤولية معالجة هذه الأزمات وإصلاح الخطاب أولاً، ثم المطالبة بإصلاح المجتمع ثانياً. فعلى سبيل المثال حينما يقدم طعامٌ لذيذ وبطريقة تفتح الشهية، وبمكان جميل ، فقلّما تجد من يرفض هذا الطعام إلا إذا كان مريضاً، وعلى العكس لو قدم نفس نوعية الطعام ولكن لم يكن مطهوّاً بشكل جيد، ولم يقدّم بطريقة جيدة، فستجد أن الكثير سيرفضون هذا الطعام، إذن تنحصر المشكلة في طريقة عرض وتقديم المادة للناس.

وهنا يمكن أن نستشهد بكلام ابن القيم في تعريفه للحكمة بأنها " فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي"[١].

وأعرض لهذا المثال الذي قدّمه سماحة المفتي السابق الشيخ أحمد كفتارو رحمه الله في محاضرة له[٢]، حينما تكلم عن حاجة الشعوب إلى الإسلام، وأن الإسلام إذا عرض على نحو صحيح، فسيكون محل قبول العقلاء واستحسانهم، أما إذا عرض على نحو مشوه أو منفر، فسيعرض الناس عنه وهذا أمر طبيعي.. وذكر هذه الأبيات المعبرة عن ذلك:

من يكره الورد الجميل وعطره ... من لا يريد حضارة وتطورا
أمّن يقول عن الحقيقة باطل ... من قالها كان الشقي الجائرا
لكنّ ورداً يابساً ومكسراً ... من يرتضيه ويرتئيه أيا ترى؟
لكن عرساً والعروس جنازةٌ ... من يرتضيها زوجة تحت الثرى
عرضوا العروس بنتنها وبخبثها والعقل يرفض لؤلؤاً إن زُورا

فمن الأزمات التي يعاني منها الخطاب الديني ما يلي:

أولاً: أزمة التأثير:

وأقصد بها، أن الخطاب الديني يعاني ضعفاً في التأثير في المجتمع، رغم مميزاته واستناده إلى الدعم السماوي والتأييد النبوي له من خلال النصوص القرآنية، والمواقف النبوية الصحيحة، فالمخاطبين للناس بالخطاب الإسلامي اليوم كثرة كثيرة من مشايخ ودعاة وطلاب علم ووعاظ،

(١) مدارج السالكين لابن القيم الجوزية ، ٤٤٩/٢.
(٢) العلامة الشيخ أحمد كفتارو، أفكار وأساليب لتجديد نهضة الأمة الإسلامية، إعداد محمد غسّان الجبّان.

ولديهم منابر متعددة، ولكن في النظر إلى تأثير الخطاب الديني نجده ضعيفاً.

لذلك فإن نجاح الخطاب الديني وزيادة تأثيره يعتمد على امتلاك مقومات النجاح لجميع عناصر العملية الاتصالية كاملة، ابتداء من المرسل ثم الرسالة ثم الوسيلة وانتهاء بالمستقبل.

فامتلاك المقومات الأساسية لكل عنصر له دوره الكبير في التأثير:

١- فمن حيث المضمون: هناك عجز في الموضوعات حيث تعاني موضوعاتنا الدعوية فقراً مدقعاً من حيث المضمون والمحتوى، كما تعاني من تخلف في بعض الوسائل والأساليب، فكم من قوالب إعلامية كانت قبوراً لأفكار رائعة.

كما نجد أن بعضاً من المضامين لا تزال تعيش في قوقعة العصر القديم، وبيئة الصحراء الرملية القاحلة، ولكنها تعرض على منابر من الرخام المزخرف ، فلماذا طورّت المنابر، ولم تتطور المضامين لتناسب الحياة الواقعية للناس، لتلامس آلامهم وآمالهم ومعاناتهم. فهذا البعد عن الواقعية يشكل شرخاً كبيراً وتأثيراً ضعيفاً لهذه الخطاب مما يتسبب في وصف الدين بالتخلف، والدين من هذا براء، وإنما المتسبب في ذلك هو أصحاب هذه الطرق التي لا يراعون أذواق الناس وتطور المجتمعات فيها.

٢- من حيث مقومات رجل الخطاب الديني:

إن " تأثير الرسالة الإعلامية، لا يتعلق فقط بأهمية بمضمون الرسالة ومحتواها، وما تحمله من أفكار ومعتقدات وحقائق، بل إن دور القائم بالاتصال في التأثير لا يقل أهمية عن دور مضمون الرسالة الموجهة[١].

(١) رسالة ماجستير للباحث بعنوان: دور الكوادر البشرية في القنوات الفضائية في التأثير وجذب المشاهدين. ص ١١٧.

وإن امتلاك رجل الدين للمقومات العملية والشخصية والأدائية لها دور كبير في زيادة تأثير الخطاب الديني.

وذلك لأن ما يميز وظيفة رجل الدين عن غيره من الوظائف هو أنه لا يستطيع أن ينجز مهامه، ويحقق وظائفه بطريقة آلية وميكانيكية، أو بذهنية تقليدية جامدة، وإنما هو محكوم أن يفعل ذلك بطريقة خلاّقة ومبدعة، ووفق متطلبات الإبداع الإعلامي وشروطه وقوانينه.

فلابد لرجال الدين من امتلاك مقومات النجاح في الخطاب حتى يكون لديهم مهارات وقدرات اتصالية عالية"[١]. ويُقصد بالمهارات الاتصالية " مهارات الكتابة والتحدث من جانب، ومهارات القراءة والاستماع من جانب آخر"[٢]، وتتعدد المهارات التي يجب على الخطيب الناجح أن يتقنها ومنها: مهارة الخطابة، ومهارة المحادثة، ومهارة الإقناع والتأثير، ومهارة التفاوض والحوار، ومهارات المناظرة، ومهارات الكتابة، ومهارة الإصغاء، ومهارة التحليل .

٣- من حيث الوسائل والأساليب والأدوات:

يجب أن تناسب ظروف الزمان والمكان والجمهور، فما يناسب فريق قد لا يناسب الآخر. لذلك على رجل الدين أن يعرف كيف يختار أسلوبه مع جمهوره، وكيف يصل إليهم ويؤثر فيهم، ومن المعلوم تعدد الأساليب التي استخدمها النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة، كالترغيب والترهيب والحوار والإقناع والتوجيه المباشر وغير المباشر والقدوة وضرب الأمثال وغيرها من

(١) جلال فرحي، كيف تحقق النجاح في المجال الإعلامي، ص ١٢٢ .

(٢) حسين عبد الهادي الخانقي: **مهارات التسويق الإعلامي عند العاملين في العلاقات العامة**، مجلة البحث الإعلامي، العدد ١٨ ، ص ١٦٣ .

أساليب الدعوة. ولا يتسع المجال الآن لإيراد الأمثلة الكثيرة عن هذه الأساليب في السيرة النبوية.

ثانياً: أزمة الفهم العميق والدقيق للنصوص:

يعاني الخطاب الديني من عجز وقصور في فهم دقيق للنصوص القرآنية والنبوية، والقصور هو من حيث فهمها من منظار منطوق النص فقط، دون الأخذ بروح النص وهدفه، ، فأما عن المنطوق فالإبداع والحفظ والإتقان واضح في الخطاب، ولكن هذا المنطوق قد لا ينطبق إلا على حوادث معينة، لا تشبع رغبات الشارع والمواطن فيما يتعرض له من مواقف وقضايا وأزمات، وبالذات مع الطيف الواسع من الخيارات الكثيرة التي صار الإنسان يتعرض لها بسبب العولمة والانفتاح وتطور وسائل الاتصال وتوسع العلاقات مع كل أطياف المجتمع. من هنا وجب على الخطاب الديني أن يتوجه إلى عمق في الفهم، ودقة في التصور لهذا الواقع، من أجل أن يضع له الحلول المنطقية التي توافق العقل والمنطق، وتقنع هذا الإنسان حتى يقف أمام السيل الجارف من الأفكار التي تُعرض عليه بشكل كبير.

فمما لُوحظ في الخطاب الديني أنه يفتقر إلى الرؤية البعيدة للأحداث، ويفتقر إلى إتقان فقه المآلات، والتي هي من صلب الشريعة الإسلامية، فعلى سبيل المثال: من البديهيات حفظ الدين و الدماء والأعراض، وهذه من الضروريات الثابتة والمعتبرة في الإسلام. فنجد أن منصة الخطاب الديني تحفظ هذه المصالح، ولكن في التطبيق تحصل المشكلة، في عدم التوفيق أن التدقيق فيما إذا كان الحل لهذه المشكلة يحقق هذه المصالح من حفظ للدماء والأعراض، فبعضهم قد يختار حلاً يتسبب فيه بانتهاك

لهذه الضرورات، بذريعة أنه يريد إزالة المنكر، ومن المقرر أن إزالة المنكر إذا ترتب عليها منكر أكبر فلا يجوز إزالته.

ولعلي أسوق شاهداً ما رُوي عن الإمام الجنيد أو غيره من الصالحين أنه مر امام رجل سكران، هو وتلاميذته، فأرادوا أن يوقظوه وينصحوه، فقال لهم : دعوه، فإنه بسكرته يخفف الأذى عن الناس . وهذا بالتحديد ما أقصده من أزمة الفهم . أننا يجب أن ننظر إلى الحالة نظرة المدقق، وبالتالي يمكن أن نخرج عن منطوق نصٍ بإزالة منكر، إلى مفهوم نص يحقق مصلحة أكبر للمسلمين.

ثالثاً: أزمة التخصص:

التخصص هو أحد أدوات الإبداع، ويقصد به أن يكون لكل مجال أهله ورجاله، ، فبهذه الطريقة نضمن نجاح الخطاب الديني بشكل كبير، أما حينما ندعي بأن الشيخ وعالم الدين يتقن كل شيىء، ويفهم كل شيء، ويحاضر في كل شيء ويستطيع أن يتكلم بالدين والسياسة والاقتصاد، ويقود فصائل مسلحة، ويتخذ قرارات تتعلق بمصير الأمة، فهذا وهم وخيال لا ينتج عنه إلا التخلف في الإنتاج، والتردي في الفهم، والذهاب إلى المجهول، ونكون قد حكمنا عليه وعلى العمل الإسلامي بالفشل والانهيار..

ولو دققنا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم لوجدنا أنه وزع الأعمال وفقاً لتخصصات أدرك من خلالها صلى الله عليه وسلم المواهب والمهارات والطاقات لدى أصحابه، وهذا واضح في قوله صلى الله عليه وسلم : (أقرؤكم أبي، وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأقضاكم علي) .

وحينما عين ثلاثة قادة في غزوة مؤتة وبالترتيب ، كان يدرك صلى الله عليه وسلم ما يمتلكه خالد بن الوليد من مهارة وفن في القيادة العسكرية ، التي استطاعت أن تنقذ ما بقي من أرواح المسلمين. فهذا التصرف النبوي يمكن أن يطلق عليه فقه التخصص .

ولو أن ما نطبقه اليوم في حياتنا المعاشية طبقناه في خطابنا الديني لأثمر أيما ثمار، فلماذا الواحد منا لو أصابه مرض . لا قدر الله . في عينه أو أذنه أو جلده، أو أي مكان من جسده، لماذا يذهب إلى الطبيب المختص في معالجة هذا المرض، ولا يذهب إلى الطبيب العام. بالتأكيد لأن لديه ثقة بأن الطبيب المختص متعمق في اختصاصه، ويدرك الأبعاد ويعرف المعالجات أكثر من الطبيب العام. ولذلك نجد ازدحاماً عند الأطباء الاختصاصيون.

وهنا حينما يتم التخصص في الخطاب الديني، فكل من يمثل منبراً من منابر الدعوة والإرشاد والتوجيه، لو تكلم فيما هو متخصص فيه، لأدى ذلك إلى نتائج باهرة. ولكن المشكلة أنه يخوض الداعي في كل المسائل علمَ منها أم لم يعلمْ، لذلك يقع ذلك المسكين في مطبات كثيرة في مواجهة الجمهور حينما يتكلم بكل شيء.

إذاً المطلوب من صاحب الخطاب الديني أن يلتزم باختصاصه، فإذا كان اختصاصه الدراسات الإسلامية ويتقنها، فهو يتكلم بها ولا يتعداها إلى اختصاصات أخرى إلا إذا حصلها وأصبح بها خبيرا، فهو لا يتكلم ويقود عملاً سياسياً إلا إذا تخصص به وأصبح به خبيراً، وهذا ينطبق على باقي التخصصات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغيرها.. وعندئذ نحصد نتائج خبرات عالية ومتعددة وجهود عقول مميزة، مما يحقق الاتقان والابداع والنجاح..

المبحث الثالث

سلبيات الخطاب الديني المعاصر المنقول

في هذا المبحث سأعرض لبعض السلبيات التي ظهرت جلياً في الخطاب الديني في الفترة الأخيرة من حوادث الربيع العربي. وقصدت بالخطاب المنقول أي الخطاب الذي تم نقله وتداوله عبر المنصات الإعلامية والكلامية والندوات ومحطات التلفزة والصحف، وذلك في الداخل والخارج، وهذه بعض السلبيات :

١- التورط في القضايا الشائكة دون سابق استعداد وإدراك كامل لها :

قد يزعم البعض ويتذرع بأن الخطاب الديني يجب أن يُعنى بمشكلات الأمة والمجتمع ، ويتعرض للقضايا المستجدة دائماً، ولا يجوز له أن يقف محايداً أو متجاهلاً لها، مستنداً بذلك إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم)[1]، وهذا الزعم صحيح في حالة وجود إدراك وإحاطة كاملة لجميع نواحي الأزمة، من حيث الأسباب والأطراف والأهداف والنتائج والتداعيات والمفرزات وكل ما يحيط بها، فإن أي قصور في فهم هذه الأبعاد سيجعل من الخطاب الديني ضحية من جملة الضحايا، وبالتالي سيخسر الخطاب الديني موقفه.

فرغم أن الشمول لجميع جوانب الحياة أحد الخصائص المميزة للخطاب، إلا أن هذه الخصيصة لا تعني بالضرورة أن يُفتح الباب على مصراعيه أمام القاصي والداني؛ ليدلو بدلوه في الشؤون العامة، فيحرك الرأي العام،

(١) أخرجه الطبراني، والحديث ضعيف، ولكن له شواهد تقويه من حيث المعنى، من تكاتف المسلمين وتقديم النصيحة لهم.

ويتكلم بحرية دون شرط أو قيد أو ضابط، أو حتى لولم يكن فقيهاً فيما يتكلم فيه، مما يعرض الناس إلى المخاطر والمصائب.

وقد تعرض الخطاب الديني خلال الأزمات لهذه السلبية، وبالتالي فشل في إيصال رسالته فضلاً عن أنه شكل فجوة بينه وبين الناس، وهذا ما حصل في الخطاب السياسي، حينما انبري له أشخاص من دعاة وأئمة وخطباء، أعطوا لأنفسهم الإذن والصلاحية في أن يتحدثوا من خلال منابرهم بكل حرية، ـ ولا أقصد حرية الرأي والتعبير ـ إنما حرية الفهم والتحليل وأحياناً إصدار القرارات، وهم لا يملكون إلا خبرة متواضعة أو نظرة قاصرة في البعد السياسي للأزمات، وبالتالي كانت تحليلاتهم وآراؤهم محط تهكم واستهزاء، مما جعل دورهم سلبياً بدل أن يكون إيجابياً، ووصلوا إلى نتيجة عكسية، نفرّت الناس من هذا الخطاب ورفضته، في حين كان الهدف هو معالجة المشكلة واحتوائها.

إذن ليست المشكلة في الاهتمام بأمر المسلمين ـ فهذا أمر متفق عليه ـ ولكن المشكلة في الخوض في أمور معقدة لها رجالها وساستها وأجندتها ، فنسي أو تناسى أصحاب الخطاب الديني أنهم رجال دين لا رجال سياسة، فالقضايا السياسية لها أبعاد تختلف عن القضايا الدينية، وإنني أؤيد ما ذهبت إليه في هذا الرأي؛ من تجنيب رجل الدين الذي لا يتقن السياسة أو ليس لديه الصفات التي تؤهله لهذا المنصب، الخوضَ في مثل هذه المسائل الشائكة ، بما فعله النبي صلى الله عليه وسلم، حينما طلب منه سيدنا أبو ذر رضي الله عنه فقال: (يا رسول الله، ألا تستعملني؟ –معنى الاستعمال هنا أن يجعله عاملاً، والياً، حاكماً، موظفا كبيراً، رجل مسؤولية– قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: يا أبا ذر،

إنك ضعيف – أي القيادة تحتاج إلى خصائص– وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها)[1].

ومن هنا يمكن القول أنه كان من الخطأ أن يتورط بعض الأئمة والعلماء في إقرار أحكام ومواقف للناس بناء على الموجة التي كانت تحرك الشارع، والتي ثبت لاحقاً خطؤها وضررها، بسبب فقد الأسباب المؤدية إلى تحقيق الأهداف.

٢- الانحياز وعدم الاستقلالية:

من السلبيات التي ظهرت جلياً أيضاً، هي تبعية الخطاب الديني للجماعات والفصائل والتيارات التي ينتمي لها، مما أفقد الخطاب أهم صفة وأهم خصيصة من خصائصه والتي هي الموضوعية في طرح الأفكار وعرض الأحكام، وهذه الموضوعية في الخطاب الديني نراها جلية في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، ولو دققنا في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لوجدنا أنه كان موضوعياً وشفافاً في خطابه، وكمثال على ذلك لو أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يخفي بعض الآيات التي فيها عتاب وتحذير له لأخفاها عن الصحابة، كعتاب الله له في خطأه مع ابن أم مكتوم كما جاء في قوله تعالى : (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) ولو شاء أن يخفي أيضاً ما قاله له تعالى : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين) ، كما نجد رفض التبعية في الخطاب إلا للحقائق الصحيحة في مواقف الصحابة الولاة فهذا سدينا عمر له موقف واضحٌ يرفض فيه التبعية للخطاب الديني الذي ينحرف عن مساره فيزور الحقائق من أجل إرضاء جهة أو جماعة أو تيار، فكما ذكرت كتب السيرة أن رجالاً

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي.

على عهد عمر فكأنهم فضلوا عمر على أبي بكر، فبلغ ذلك عمر فقال: والله لليلة من أبي بكر خير من آل عمر، وليوم من أبي بكر خير من آل عمر[1].

وذكر الغزالي في الإحياء موقف آخر لعمر بن الخطاب مع أبو موسى الأشعري ، حيث كان هذا الأخير إذا خطب الجمعة حمد الله تعالى وأثنى عليه ، ثمَّ صلى على النبيّ – صلى الله عليه وسلم – ثم أخذ يدعو لعمر بن الخطاب ، ولا يذكر أبا بكر – رضي الله عنهما – فقام إليه واحد من أفناء الناس ، هو (ضبّة بن محصن العنزي) ، وقال له : أين أنت من صاحبه تفضله عليه ؟، ولكن أبا موسى لم يرتجع وكتب إلى عمر : أن ضبة بن محصن يتعرض له في خطبته ، فطلب عمر أن يُشخصه إليه ، فلم يتمرد ضبّة ولم يمانع ، بل ركب راحلة من البصرة إلى المدينة إلى المدينة استجابة لأمر أمير المؤمنين ، حتى إذا وصل بيته ضرب عليه الباب . ويقول ضبَّة: فخرج إليَّ ، فقال : مَن أنت؟ فقلت : أنا ضبَّة ! فقال : لا مرحباً ولا أهلاً ، فقلت: أمّا المرحب فمن الله ، وأمَا الأهل فلا أهل لي ولا مال هنا، بماذا استحللت إشخاصي من مصري يا عمر بلا ذنب أذنبته ، ولا شيء أتيته؟، فقال: ما الذي شجر بينك وبين عاملي؟ قلت: الآن أخبرك به: إنه كان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم أنشأ يدعو لك، فغاظني ذلك فقمت إليه فقلت له: أين أنت من صاحبه تفضله عليه ؟! " فصنع ذلك جمعاً ، ثم كتب إليك يشكوني. فاندفع عمر رضي الله عنه باكياً وهو يقول : أنت

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، في ذكر هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة.

والله أوفق منه وأرشد، أنت والله أوفق منه وأرشد ، فهل أنت غافر لي ذنبي ، غفر الله لك؟ فقلت: غفر الله لك ياأمير المؤمنين فقال وهو باك: والله لَليلة من أبي بكر ويوم خير من عمر وآل عمر(١).

فمن هذين المثالين يتضح لنا كيف كان الرفض واضحاً لتحيز الخطاب الديني وتبعيته، بينما في الفترة التي تزامنت مع حوادث الربيع العربي، اتسم الخطاب الديني بأنه خطاب انحيازي تبعي، نادراً ما كان مستقلاً، بل غالباً ما كان تابعاً لجهة أو تيار أو جماعة أو فئة ما، وبالتالي تحول الخطاب في هذه الحالة إلى بوق إعلامي يروج لأفكار جماعته التابع لها، ويدافع عن مصلحتها، وينحرف عن مساره الأساسي في تحقيق الأهداف الأساسية للخطاب الديني . وهو في هذا الصدد لا يبحث عن الحقيقة ، إنما يبحث عن الأدلة التي تؤيد موقفه، وتخدم جماعته، ويُسخر النصوص ويُلوي أعناقها لتخدم مصالحه، وموقف جماعته، ليستند إليها في قراراته، وشتان بين أن يكون الهدف هو الوصول إلى الحقيقية، وبين أن يجعل من الأدلة مطية للوصول إلى مآربه وأهدافه.

وإذا ما أحسنا الظن بأن الخطاب الديني التابع والغير المستقل، يحافظ على مصداقيته من خلال اعتماده على الأدلة الصحيحة ، وعرضه للأفكار المنطقية التي تؤيد موقفه، دون تحريف أو تزوير في الاستنباط أو الاستدلال، إلا أنه يبقى قاصراً وعاجزاً لعدم قدرته على عرض الصورة الكاملة للموقف أو القضية التي يتناولها. بسبب معارضتها لأفكار الجهة التي ينتمي إليها.

(١) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، ص٤٤٠.

٣- الازدواجية في المواقف:

الازدواجية في المعايير أو الكيل بمكيالين، هو مفهوم سياسي صيغ بهيئته الحديثة عام ١٩١٢م[١]، والازدواجية نوع من التحيز، وانتهاك لمبدأ العدالة، الذي يقوم على أساس افتراض أن نفس المعايير ينبغي أن تطبق على جميع الناس.

ومما لُوحظ عند بعض دعاة الخطاب الديني الازدواجية في المواقف، فنجد أن أحكامهم ومواقفهم اختلفت تماماً استنادا إلى اختلاف الأشخاص والأماكن. فمع اتحاد العلة . ان صح القول . بقيام الأزمات، نجد اختلافاً في المواقف والأحكام للشخص ذاته. فما جاز في مكان حُرّم في مكان آخر. وهذا ما كان واضحاً وشكّل فجوة كبيرة في مصداقية الخطاب الديني. ولابد من التفريق بين الازدواجية في الأحكام وبين الحكمة في التصرف، فالقضايا العامة والمصيرية للشعوب ينبغي أن تكون الأحكام فيها واضحة ولا مجال فيها للآراء الخاصة بذريعة الحكمة .

٤- تسخير العاطفة الإنسانية لخدمة الأهداف الشخصية :

مما اتصف به الخطاب الديني في هذه المرحلة بأنه كان خطاباً عاطفياً جياشاً بعيداً _ إلى حد ما _ عن العقلانية والدقة في توصيف الحقائق، وهذا بشكل نسبي ، مما يجعله قصير المدى في التأثير، فسرعان ما تتلاشى آثاره، لأنه يعتمد على العاطفة الآنية التي تتأجج بسرعة وتخمد بسرعة، هذا من ناحية، بالإضافة إلى اتخاذ قرارات سريعة بالاعتماد على العاطفة، دون التفكير العقلاني الواعي، والنظر بأبعاد هذه القرارات، مما يسوق الناس إلى اتخاذ سلوكيات ومواقف خاطئة سرعان ما تظهر

(١) موقع الموسوعة الحرة: www.wikipedia.org

نتائجها السلبية والعكسية، الأمر الذي يعود على الخطاب الديني بالرفض والمعاداة لاحقاً.

فكان الخطاب الديني ينظر إلى الصورة القريبة دون التفكير في مآلات الأمور، فكثيراً ما كان دعاة الخطاب الديني أو أصحاب المنابر يحركون العواطف بالحديث عن صورة مؤلمة لآثار الأزمات من صرخات للأطفال، وآهات للأمهات، وعرض للأشلاء أو الدماء أو ما إلى ذلك ليجيشوا العواطف ويدفعوا الآخرين إلى التصرف دون تفكير أو تدبير، وهذا الأمر سبب مشكلة كبيرة ورطت كثيراً من الناس في مشاكل ومآزق لا تعنيهم.

ومما لا شك فيه أن الخطاب الناجح ينبغي أن يخرج من عاطفة صادقة، ومن فكر وعقل سليم، فرفض العنف والظلم والتطرف أمر متفق عليه، وليست المشكلة في ذلك، وإنما المشكلة في طريقة التعامل مع هذا العنف أو الظلم وتغييره، وهذا يتطلب خطاباً دقيقاً وفهماً عميقاً للمواقف، ومحاكاة عقلانية للأمور وكيفية معالجتها، وهذا ما نجده في تصرف النبي صلى الله عليه وسلم، حين غلّب العقل على العاطفة في اتخاذ القرارات وقت الشدائد، وتصرف بوعي عقلاني كبير ليحقن الدماء ويحفظ النفوس، فما صلح الحديبية إلا دليلاً واضحاً على ذلك، فهذا الاتفاق كان ذا رؤية إستراتيجية بعيدة، وتخطيط عقلاني بامتياز، خدم مصالح الدعوة خدمة كبيرة وهذا ما أثبتته الأيام لاحقاً. بينما وُجد من اعترض على هذا القرار لأنه نظر من منظار يتعلق بالعاطفة الإسلامية ، ورأى أن الاتفاق تنازل عن الحقوق، وهذا تمثل في قول سيدنا عمر رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم، يا رسولَ اللهِ! ألسنا على حقٍّ وهم على باطلٍ؟ قالا : بلى قال: أليس قتلانا في الجنةِ وقتلاهم في النارِ؟ قال: بلى قال: ففيمَ نُعطي الدنيَّةَ في ديننا ، ونرجعُ ولما يحكم اللهُ بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابنَ

الخطابِ! إني رسولُ اللهِ. ولن يُضيِّعني اللهُ أبدًا، قال: فانطلق عمرُ فلم يصبر متغيِّظًا. فأتى أبا بكرٍ فقال: يا أبا بكرٍ! ألسنا على حقٍّ وهم على باطلٍ؟ قال: بلى. قال: أليس قتلانا في الجنةِ وقتلاهم في النارِ؟ قال: بلى. قال: فعلام نُعطي الدنيَّةَ في ديننا ، ونرجعُ ولما يحكمُ اللهُ بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابنَ الخطابِ! إنَّهُ رسولُ اللهِ ولن يُضيِّعَه اللهُ أبدًا. قال: فنزل القرآنُ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالفتحِ. فأرسل إلى عمرَ فأقرأَه إياهُ. فقال: يا رسولَ اللهِ! أو فتحٌ هوَ؟ قال: نعم فطابت نفسُه ورجع)[1].

فهذا القرار الذي اتخذه النبي صلى الله عليه وسلم بهذه العقلانية، وعدم الاستجابة إلى عاطفة الأتباع، ينبغي أن يكون منهجاً للخطاب الديني، فما ينبغي أن يكون نبض الشارع هو من يوجه دعاة الخطاب الديني في الشدائد، إنما الذي يقود خطاهم ويوجه قرارهم هو نبض الحق وصوت العقل.

٥- إنه خطاب تواكلي تخديري:

مما اتصف به الخطاب الديني في هذه المرحلة ، بأنه كان خطاباً تواكلياً، يخدر الطاقات ويضعف الهمم، بشكل غير مباشر وغير مقصود، حيث كان يسوق لفكرة أن الأمر كله بيد الله، وليس علينا إلا الصبر والانتظار- ومع اتفاقنا على صحة هذه الفكرة - لكن توظيفها جعل من الإنسان مجرد كائن مسير ليس له إرادة، ولا يملك حلاً أو بديلاً ، وهذه الصفة ظهرت من خلال المضامين التي تعرض لها الخطاب الديني بالتزامن مع الأزمات. فكان الخطاب الديني يدعو إلى الصبر وانتظار الفرج - وهذا أمر مطلوب -

(١) أخرجه مسلم ١٧٨٥.

في حين نادراً ما يتعرض إلى الأساليب العملية والطرق التي توضح السبيل وكيفية التخفيف من الأزمات، فأي صبر سيحل أزمة ونحن جالسون ننتظر، اسُتخدم الصبر في غير مفهومه الصحيح، لماذا لا يكون الصبر على العمل، وعدم اليأس، الصبر على وضع الحلول وتطبيق البدائل، فالنبي صلى الله عليه وسلم، لما بشّر بفتح القسطنطينية وقال لصحابته : (لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش) [1] لم ينتظر الصحابة الفتح، إنما سعوا إليه، وحاولوا مراراً تحقيقه، حتى أكرمهم الله عز وجل به على يد السلطان محمد الفاتح. فحينما يتوجه الخطاب إلى الصبر مع العمل والأخذ بالأسباب ، فإنه يحرك الطاقات نحو التفكير الدائم في الخلاص من الأزمات، فحينما دخل سيدنا عمر المسجد ووجد بعض الناس جالسون بعد الصلاة ، قال: من أنتم؟ قالوا :متوكلون، قال : بل أنتم متواكلون...لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، إنما يرزق الله الناس بعضهم من بعض.

وظهر التخدير بالفهم الخاطئ لحديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يتردد على كثير من ألسنة الخطباء حينما تقع الفتن: أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك، فُهم منه الخمود والركود والتزام البيت، وهذا صحيح في حالة الخوض في الفتنة التي تجعل الحليم حيران، ولكن مطلوب من الإنسان الذي يجد عنده كفاءة وقدرة وفقه في القضية أن يتكلم فيما يطفئ به نار الفتنة. أما سواه فعليه أن يغلق باب في الخوض في

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

الأحداث ، ولكن أن يفتح بابه للعمل في التخفيف من معاناة الناس، والتفكير بحلول لمواجهة الأزمات المتناثرة .

٦- الإقصاء ورفض الأخر:

هذه من السلبيات التي قصمت ظهر الخطاب الديني، كونه شكّل شرخاً كبيراً مع الآخر، برفضه له، أو اتهامه له، أو معاداته له، أو محاربته له، وانحراف الخطاب الديني عن أهدافه المرجوة، بحيث صار غاية الخطاب وأقصى مناه هو إثبات خطأ الآخر، ودحض فكرته، دون التفكير في محاولة هدايته أو إقناعه أو محاورته، أو التعايش معه، فيدخل الخطاب في معركة يريد أن ينتصر فيها على خصمه، منافياً بذلك المنهج النبوي الذي كانت معاركه الكلامية أو الحوارية تهدف إلى هداية الآخر لا إلى تدميره.

٧- الجمود في الخطاب الديني وعدم مواكبته لمتطلبات العصر:

وهذه مشكلة خطيرة، حيث أصبح واضحاً لدى الجميع اليوم، ما وصلت إليه البشرية من مراحل متقدمة من التحضر والتمدن، والتطور في جميع المجالات، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والتكنولوجيا وغير ذلك، في حين نرى أن الخطاب الديني لا يزال يراوح مكانه، ويكبل حركة الإنسان المسلم بشماعة قدسية النصوص وثباتها، دون أن يميز بين قدسية النص وبين فهم النص، الأمر الذي يستدعي أن يكسر الخطاب الديني هذا الجمود ويتحرر من هذه القيود ، وينطلق نحو مرونة واسعة في كل شيء، في فهم الواقع، فهم الوسائل والأساليب الدعوية، طرق الوصول إلى عقول وقلوب الآخرين، بالإضافة إلى فهم النصوص بشكل عميق وواسع، وإسقاط ما يمكن إسقاطه على الواقع، بحيث تفسر

النصوص تفسيراً واقعياً مع الحفاظ على التفسير الأساسي، ومراعاة أحوال الجماهير ونوعياتهم وتخصصاتهم وأعمارهم.

فبعض دعاة الخطاب الديني يصرون على إنكار مكتسبات العلوم الجديدة في الاقتصاد والسياسة وعلوم النفس والاجتماع والتاريخ، وكأن العالم وحركة البشرية قد تجمدت عند المجتمع الإسلامي الأول في عصر النبي والخلفاء، وكل ما جاء بعدهم من متغيرات وتجارب يخضعونها لمعيار المجتمع الإسلامي الأول .

٨- الفوضى والسطحية في فهم وتفسير النصوص والوقائع التاريخية:

وهذه من الطامات التي تسبب الكوارث الفكرية ، وتقزم النصوص الدينية ، في مفاهيم قاصرة لا تعدو أن تكون مجرد أحكام لظروف مضت، وأفكار لا تسمن ولا تغني من جوع، وذلك بسبب السطحية والتقيد بحرفية النص، والبعد عن التعمق في الاستنباطات والاستدلالات والإيحاءات التي يوحي بها. إضافة إلى الفوضى التي جعلت أي شخص يتجرأ على الخطاب الديني، ويفسر النصوص بما يؤيد فكرته، وبما يدعم نظريته، بعيداً عن المعنى والفهم الصحيح أو الأساسي للنص الديني . وربما يرفض نصاً صحيحاً واضح الدلالة، إذا كان يخالف فكرته.. فالخلاصة أنه أصبح الانتماء للفكرة، وليس للحق، فأصبح أصحاب هذا الخطاب يتبنون الفكرة ويدافعون عنها ويقحمون النصوص في تأييدها، ولا يهمهم أبداً إلا إثبات صحتها، دون النظر في احتمالية خطأ الفكرة، وهذا المنهج بعيد كل البعد عن منهج البحث العلمي.

٩- التمييع وتضييع المبادئ بذريعة التعايش مع الآخر:

سقط بعض الدعاة والخطباء في هوة عدم فهم قضية التعايش مع الآخر الفهم الصحيح، فتنازل عن المبادئ الأساسية والثابتة في الدين ، كسباً

للأطـراف المختلفـة، وإرضـاء للفئـات الأخـرى، تحـت مسـمى التقـارب، أو التعايش، فترى بعض المتكلمين بالخطاب الديني، يجعل منـه خطاباً ليس لـه مبادئ أو ثوابت، فيتجرد من كل القيم ليجري مـع التيـار حتـى ولـو وصل إلـى أعمـاق الخطـأ. فحينمـا تُطرح فكرة من قبـل الآخـر، فـإنهم يسوقون الخطـاب الـديني بحيث يتبنـى هذه الفكرة، ويبحث عن الأدلـة مـن أجل إثبـات الفكرة، ويجعل الخطاب الديني من نفسه هو المسؤول عن التقارب والتعايش ومزامنـة الواقع .. وما إلى ذلك ، وكل ذلك تحت مـا يسمى التجديد فـي الخطـاب. فـلا يجب أن ننسى أبدأ أن التجديد فـي الخطاب لا يعنـي التنـازل من جهـة، وفـي الوقت نفسه لا يعنـي التعنت والتعصب من جهـة ثانيـة، ولكن يمكن للخطـاب الديني أن يبين موقفه مع الاحتفاظ بالاحترام لبقية الأديان والطوائف الأخرى .

المبحث الرابع

سمات الخطاب الديني المأمول:

بعد أن عرضتُ لبعض السلبيات التي وقع بها الخطاب الديني في تناوله للأحداث الأخيرة، فإن معاينة الأخطاء وتشخيصها هي بداية الانطلاق نحو التصحيح والتصويب من جهة، والتجديد والتطوير من جهة ثانية. وفي هذا المبحث سأتناول السمات المأمولة والمرجوة في الخطاب الديني ليؤدي دوره بشكل أكثر فعالية وتأثير، ويستعيد دورة القيادي في توجيه الآخرين وتحريك سلوكهم.

ومن هذه السمات والمميزات:

١- العدالة والموضوعية في تناول القضايا وإصدار الأحكام:

إن العدالة والموضوعية والتجرد، والنقل الأمين لحقيقة الواقع ، تعتبر من أهم عوامل نجاح الخطاب الديني، فهو من خلال تناوله للقضايا يجب أن يعطي كل ذي حق حقه، بلا إفراط ولا تفريط، وبقدر موضوعيته يفسح المجال للحقيقة أن تظهر، ويكسب ثقة ومتابعة أكثر.

والعدالة يقصد بها: أن يقف دعاة الخطاب الديني إلى جانب الحق في القضية التي يعرضونها، ولا يحكمون على الأشياء إلا بعد دراستها وبحثها بحثاً دقيقاً من جميع وجوهها[١].

وأما الموضوعية: "فهي القدرة على السلوك والتصرف وإصدار أحكام غير متحيزة، لعنصر أو لرأي أو لسياسة... "[٢].

([١]) د. منير حجاب ، **الإعلام الإسلامي** ، ص ٢٥٥ .

([٢]) د. محمد طلعت عيسى ، **العلاقات العامة** ، ص ٤٩ .

وإذا كانت الموضوعية مفقودة ـ إلى حد ما ـ في الخطابات العامة ، بسبب الانحياز والميول والتبعية فإن أهميتها آكدة في الخطاب الإسلامي لأنه مطالب بالنزاهة والموضوعية والأمانة في النقل، وليس مُطالباً بإقناع الجمهور بوجهة نظره، وإنما مُطالبٌ بنشر التعاليم الدينية والقيم المنزلة من السماء[1].

وقد بيّنت الدراسات التي أجريت في هذا المضمار، أن رجل الإعلام الديني أو غيره ، يستطيع أن يحوز على ثقة جمهوره، واحترامه إذا اّتصف بالمصداقية والموضوعية والجرأة والنشاط وعلو الهمة وتسامي الذوق[2].

٢- المرونة والبعد عن الجمود:

فالتطور المستمر في جميع المجالات يستدعي المرونة في التعامل مع المستجدات، والبعد عن العقلية المتحجرة التي تتمسك بأدق التفاصيل ، وتبتعد عن تحقيق الأهداف المرجوة من الخطاب في حال تغيرت الشكليات . والمرونة لا تعني التنازل عن المبادئ والقيم، وإنما التنازل عن الشكليات وتغير الآليات بما يتناسب وروح العصر، وذلك من أجل تحقيق أكبر قدر من الأهداف في الهداية والتقارب مع الآخرين وتبليغ رسالة السماء.

ومن المرونة وعدم الجمود الانفتاح نحو الآخر، والاستماع لوجه نظره، والحوار معه، ومحاولة الوصول إلى قواسم مشتركة، في الحياة الإنسانية، بما يحفظ كرامة الإنسان واستخلافه على هذه الأرض، وبما يحقق السعادة للبشرية جمعاء.

---

(١) د. عبد الوهاب كحيل، **الأسس العلمية والتطبيقية للإعلام الإسلامي**، ص ٤٨ .

(٢) د. عبد المجيد شكري، **الإعلامي المحلي في ضوء متغيرات العصر** ، ص ٩٠ .

٣- الوسطية وعدم التطرف أو التعصب لمذهب أو تيار أو جماعة:

إن نجاح الخطاب الديني يعتمد بشكل كبير على بناء ثقافة الوسط، والبعد عن التطرف بكل مجالاته. فالوسطية منهج قرآني نبوي، كما قال تعالى: (وجعلناكم أمة وسطا) .

٤- العمق في طرح الأفكار والبعد عن السطحية:

مع ازدياد العلوم، وتوسع التخصصات، أصبح الخطاب الديني أمام تحديات كبيرة، وتنافسات شديدة، مما يتطلب منه أن يتناول القضايا بفهم عميق، ويطرح حلول تتوافق مع العقل والفكر، ويبتعد عن الطرح السطحي الذي لا يناسب إلا فئة قليلة من فئات المجتمع، وذلك من خلال التحليل العميق المستند إلى قواعد وأصول في شتى العلوم.

٥- العناية بتطبيق فقه الأولويات ومعرفة فقه المآلات:

لم يعد فقه الثقافة الإسلامية محصوراً بأحكام الفقه الإسلامي فقط، وإنما بات من الضروري معرفة أحكام أخرى في الفقه، بمسميات جديدة فرضها الواقع، ومنها : فقه الأولويات، وفقه المآلات، وفقه الأزمة، وفقه الواقع . فكلما أتقن الخطاب الديني تطبيق هذه المفاهيم كلما كان له الدور الريادي في تشكيل الوعي الفكري والثقافي. ومن أهم الأمور التي ينبغي أن يركز عليها في ظل ما يعتري المنطقة العربية من تمزيق وتفريق هي أولوية احترام النفس البشرية وصيانتها وحرمة الدماء والأموال والأعراض وحرية المعتقد والتفكير .

٦- المصداقية لدى القائمين على الخطاب الديني:

إن عملية الإقناع والتأثير تقوم في الأساس على المصداقية، وإن قدرة الخطيب أو الداعي على الإقناع متوقفة على مدى الثقة فيه، وقد قدمت النظرية الإعلامية الإسلامية للصدق ثلاث مستويات:

المستوى الأول : صدق في النيات، وهو الذي يسبق العمل، ويجعل الداعية بقلبه وقالبه مع هذا العمل .

المستوى الثاني: صدق الأقوال ويعني أن الداعية لن يقول إلا صدقا.

المستوى الثالث : صدق الأفعال وهو يمثل الجانب الظاهري للعمل[1].

٧- التوازن في الخطاب الديني:

وتوحي هذه العبارة بأن هناك خللاً يعتري الخطاب الديني. وفي الحقيقة يوجد هذا الخلل ، ولكن بأشكال مختلفة ، فنجد من الدعاة والخطباء من يعطي جانب أكثر من جانب، ويغلب شيء على شيء، وهذا من الخطأ، لذلك كلما كان الخطاب الديني متوازناً كان أدعى للقبول.

ويمكن أن يكون التوازن في عدة أمور ، منها:

- التوازن بين العقل والعاطفة: فالخطاب الديني يجب أن يراعي حال وطبيعة الإنسان، والتي خلق عليها من عقل وعاطفة، فيخطاب الجمهور بحسب الحال والظرف، فأحياناً يخاطب المشاعر والعواطف، وأحياناً أخرى يخاطب العقول والألباب، وذلك مرتبط بالقضايا التي يعالجها الخطاب الديني، بحيث يشبع رغبة المستمع من العاطفة والعقلانية.

- التوازن بين الماضي والحاضر ويمكن أن نسميه الجمع بين الأصالة والمعاصرة : بحيث لا ينحصر الخطاب الديني في التعرض للوقائع التاريخية والمناسبات الدينية، والقصص التراثية فقط، ويهمل جانب الواقع الحاضر وما فيه من مستجدات وأحداث ووقائع . ولا يكتفي بالاستشهاد بما مضى من رجال ومواقف، إنما أن يستشهد بما في هذا العصر من شواهد فكلما كان الحديث قريباً من الواقع كان أقرب للإقناع.

([1]) د . منير حجاب ، **الإعلام الإسلامي** ، ص ٢٥٧ .

- التوازن في الأدوار والموضوعات التي يتناولها الخطاب الديني: فلا ينبغي أن يتحول المنبر إلى برلمانات سياسية تتكلم بالقضايا السياسية اليومية بشكل مفرط، وفي الوقت ذاته، لا ينبغي أن يهمل جانب الخطاب الوجداني الروحاني الذي يخاطب القلوب، ويشدو بالأرواح، ويزكي النفوس، بالإضافة إلى الحاجة لوجود خطاب يتعلق بتعليم أحكام العبادات وما يتعلق بها من أحكام الدين. فينبغي أن لا تهمل هذه الجوانب بذريعة الأولويات، فبضعهم يجعل من الأزمات التي تمر بالمجتمع، سبيلاً إلى التخلي عن كثير من الأساسيات والأسس في الدين والتي يجهلها كثير من الناس، فيكون الخطاب خطاب إما سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي.. ويهمل الجانب العبادي أو التعليمي. لذلك يجب أن يكون هناك أدوار لجميع الشرائح لتتحقق أهداف الخطاب الديني بشكل كامل شامل.

٨- المنطقية والواقعية القريبة من حياة الناس:

وذلك بأن يتعرض الخطاب الديني لواقع الناس الحياتي، من جميع الجوانب والجهات، وأن يكون الخطاب الديني خطاب عملياً قابلاً للتطبيق، وليس خطاباً نظرياً، يطرح مجرد أفكار وخواطر وهمزات، ويترك الناس بعيداً عن ميدان التطبيق، أو عن إمكانية التطبيق، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، فإن الواقعية التي يجب أن يتحلى بها الخطاب الديني، ينبغي أن تنطلق من فكرة قدرة الخطاب على تقديم حلول وبدائل لمشكلاتهم وأزماتهم، وليس فقط أن نقزم مهمة الخطاب الديني بإصدار الأحكام في الحلال والحرام، بل يجب أن يتحول الخطاب الديني إلى مخلص لكثير من المشاكل وذلك من خلال تقديم حلول وبدائل ووسائل وطرائق بديلة عن الطرائق المحرمة، وبهذا يمكن أن نقنع الآخرين بأن الخطاب الديني قادراً على أن يكون حلاً لكثير من المشاكل .

٩- استعمال الوسائل والتقنيات الحديثة في الخطاب :

إن وجود كوادر بشرية ذات كفاءات عالية، تتصدر منصات الخطاب الديني، وتمتلك مهارات عصرية في فنون الخطاب، وتستخدم كل الوسائل والتقنيات الحديثة من وسائل إعلام، وإتقان فنون الإلقاء وأدبيات الحوار، وطرائق العرض وما إلى ذلك ، من شأنها أن ترتقي بالخطاب إلى أعلى مستويات، وتحقق أكبر المكاسب.

الخاتمة والمقترحات:

لاحظنا أن قضية الخطاب الديني تحتل أهمية كبيرة في العصر الحاضر، نظراً لما يشوبها من التباس وما يكتنفها من تشويه، ولذلك فإننا نتوق جميعا إلي خطاب دعوي متجدد، يتلائم مع متغيرات العصر من جهة، ويحافظ على أصالته وعراقته من جهة ثانية. كما نأمل أن يعتني بالتخطيط ويتبنى قضايا الأمة والمجتمع، ويطرح الأفكار والحلول والمقترحات لعلاج الأزمات والمشاكل التي تعترضهما، ويواجه الموجة التكفيرية الخطيرة التي تستهدف تمزيق الأمة الإسلامية، كما يواجه الفتنة الطائفية الخطيرة جداً التي تجتاح العالم الإسلامي، ويركز على تصحيح المفاهيم الحقيقة للمصطلحات الفكرية والعقدية، ويوضح حقيقة الدين مستفيدا من التقنية الحديثة والوسائل المعاصرة والكفاءات الموجودة، بحيث يحسن توجيه الشباب من خلال خطاب عقلاني منطقياً معتدل، بعيدٍ عن الشحن الزائد والغلو والتطرف، ليكون الخطاب الديني صمام الأمان لهذا الجيل.

ويقترح الباحث في تحقيق هذه الأهداف المأمولة عدة مقترحات:

١- التركز الدائم والمتابعة المستمرة لقضية تطوير الخطاب الديني، وفقاً للمفهوم الإسلامي في التجديد وذلك في جميع المنابر والمنصات، من قبل الجهات صاحبة القرار والمسؤولية.

٢- التركيز على تأهيل الأئمة والدعاة والخطباء وطلاب العلم، تأهيلاً فكرياً وثقافياً وتقنياً، بحيث يمتلكون أدوات العصر في الإقناع والتأثير والحوار، وفهم الواقع وكيفية إسقاط النصوص والأحداث التاريخية ، والاستنباط والاستدلال بها.

٣- الاستعانة الدائمة بمستشارين متخصصين في المسائل المستجدة والقضايا الساخنة، يلجأ إليهم دعاة الخطاب الديني في إزالة الضبابية عن هذه المسائل قبل طرحها وتناولها، تجنباً لحدوث أخطاء أو قرارات مغلوطة.

٤- وضع معايير ثابتة في تناول قضية الخطاب السياسي تحديداً.

٥- تفعيل الندوات والمؤتمرات المستمرة التي تطرح آخر ما توصل إليها الخطاب الديني، فتعالج النقائص وتسد الخلل وتقترح التطوير.

٦- الاستفادة القصوى من وسائل الإعلام بجميع أشكالها وألوانها ، حيث تعتبر هي السلطة الأقوى في تشكيل الوعي الثقافي للمواطنين ، وذلك من خلال إنتاج إعلامي يصدر الخطاب الديني بصور متعددة مثل ندوات ومحاضرات ومسلسلات ومسابقات وغير ذلك من البرامج.

٧- تعاون جميع المؤسسات الدينية ، والهيئات العلمية ، والمنصات الإعلامية على إنتاج خطاب عقلي وعلمي وثقافي يتناسب مع ظروف العصر وحجم التحديات ، ويحافظ على الثوابت الشرعية والأخلاقية والقيمية للمجتمع ، ويضع حلولاً واضحة ومناسبة تتسم بالمرونة والواقعية لكل ما يواجه المجتمع من مشكلات أو تحديات.

وختاماً أرجو من الله أن أكون قد وفقت بما أشرت إليه .

وما توفيقي إلا بالله

وكتبه

طارق محمد تيسير ناجي

٢٠١٧/١/٢٥م